التجديد في الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من مديحٍ وهجاءٍ وغزلٍ ورثاءٍ مما كان ينظم فيه الجاهليون والاسلاميون وبذلك بقي الشعر العربي على شخصيته الموروثة، وقد مضوا يدعمونها دعماً بما يلائم بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة، وأذواقهم المتحضرة المرهفة، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً يقوم على التواصل الوثيق بين صورة الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة.

1. المديح:

أول موضوعٍ نقف عنده هو المديح، ومعروف أن الشاعر الجاهلي والاسلامي كان يرسم في ممدوحه (المثالية الخلقية) الرفيعة التي تقدرها الجماعة، كأن يكون خليفةً أو والياً عرضَ لأعماله، وللأحداث التي شارك فيها، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش فإنه يصوّرُ بطولته وما خاضهُ من معارك حربية. إذ نرى الشعراء يعيدون في تصوير المثل الخلقية كالسماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس والشجاعة والبأس، وبذلك ظلت المدحة صوتاً للتربية الخُلقية السليمة. وأضافوا ألى المثالية الخلقية مثاليةُ الحُكم من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لاتصلح حياة الامة بدونها، مثل قول مروان بن أبي حفصة:

أحيا أميرُ المؤمنينَ محمدٌ سُنَنَ النبيِّ: حرامَها وحلالَها

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها، ثم يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعيرٍ أو فرسٍ أو مايراه من حيوانٍ وحشي، ويضمنها بجانبِ ذلك حِكماً من سنن الحياة. وكل ذلك استبقاه شاعرالمدحةِ في العصر العباسي ولكن مع إضافاتٍ كثيرةٍ حتى يلائم بينه وبين عصره. وقد نعجب لاستبقاءِ هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الاطلالِ ورحلة الصحراءِ! غير أنّهم اتخذوها رمزاً. أمّا الاطلال فلحبهم الداثر، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الانسان في الحياة، وقد استغلوا ماكان يصحب الاطلال من حنين لذكريات الحب لايزال في أشعارهم، من مثل قول مسلم بن الوليد:

هلّا بكيتَ ظعائناً وحُمولا تركَ الفؤادَ فراقُهم مخبولا
فإذا زجرتُ القلبَ زادَ وَجيبُهُ وإذا حبست الدَّمعَ زادَ هُمولا

وحاولَ بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الاطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة، على شاكلة أشجَع، إذ يستهلُّ إحدى قصائده بقوله:

قصرٌ عليهِ تحيةٌ وسلامُ نشرتْ عليهِ جمالَها الايّامُ

وعلى نحو ما استبقوا الاطلالَ استبقوا رحلة الصحراء وتفننوا في وصف وعوثةِ طرقها ورياحها الحارة، على شاكلة قول مسلم:

ومَجْهلٍ كاطِّرادِ السيفِ مُحتجَزٍ عن الأَدِلاَّءِ مسجور الصياخيدِ

وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشي محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار في بائيته، مصوّراً مانالَ أُتُنَ الوحشِ من حرقةِ العطشِ الشديدِ:

غدت عانةٌ تشكو بأبصارها الصَّدَى إلى الجَأبِ إلا أنها لا تُخاطبُه

وتحول الشاعر العباسي في أحيانٍ كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في الربيع، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبي تمام في مدحِ الخليفة المعتصِم وقد مضى يتحدث في إسهابٍ عن جمال الطبيعةِ في الربيع، وكأنّهُ يتخذُ منهُ رمزاً لعصر المعتصم، فيستهلّها بقولِه:

رقَّت حواشي الدَّهرِ فهيَ تَمَرْمَر وغّدا الثَّرى في حَليِهِ يتكسَّرُ

واتخذوا أحياناً من وصف السُّفُنِ ورحلتها في الأنهارِ صورةً مقابلةً لرحلةِ البعيرِ في الصحراء، مثل قول بشار في إحدى مدائحهِ للخليفةِ المهديّ:

وعذراءَ لاتجري بِلحمٍ ولا دمٍ قليلةُ شكوى الأَيْنِ مُلجَمَةِ الُّدبرِ

وجعلتهم موجةُ المجون الحادة في العصر يصفون في مقدماتِ مدائحهم الخمرَ أحياناً، واستهلَّ ذلك بشار، وتوسَّعَ فيه مسلم وأبونواس وأبو العتاهية سعةً شديدةً، وعُنُوا على نحوِ ماعُنيَ الشاعر القديم ببثِّ الحِكَمِ في قصائدهم، وكان قد تُرجِمَ كثيرٌ من الحِكَمِ الفارسية والهنديةِ واليونانيةِ، فأفادوا من ذلكَ كلّه ونثروهُ في تضاعيفِ مدائحهم، فضلاً عن تأملاتهم في الحياةِ والطِباع، من مثلِ قولِ أبي تمام في فضلِ المحسودِ ونقصِ الحسود:

وإذا أرادَ اللهُ نشْرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسانَ حسودِ